ضـربُ المدينـــة

كان السوق المركزيّ حول جامع المدينةِ يعجُّ بالناس من المتسوِّقين والبائعين ، والقادمين من القرىٰ والبلدات والمناطق وكلٌّ يحملُ بضائعه ومنتجاته ، ويعرضُ ما حملَ واحتوىٰ مخزنَه ، والناس يملؤون الشوارعَ والطرقات والحافلات ، وفجأةً تُعْلَنُ أخبارُ الحرب ، وتسيرُ نُذرُها بين الناس وعَبْرَ الإذاعات ، وصارَ الجمهورُ مذعوراً ، كلٌّ يتجه نحو داره وبَلَدِه ليَلوذ بها يتَجنَّبُ غَدْرَ الصهاينةِ الذين تعوَّدوا علىٰ الإجرام وأصبحَ قتل المدنيين وقصفَ المدن والقرىٰ والبلدات من سلوكهم البغيض.

وما أن انتصفَ نهارُ الخامس من حزيران ١٩٦٧م ، حتىٰ أغارت علىٰ المدينةَ قاذفاتٌ تحملُ أَطناناً من القنابل المتفجرةِ والحارقةَ وتَقَصَّدَت تجمّعاتِ المارَّةِ والمتسوِّقين في ساحة المدينةِ وتفجَّرَت هذه القنابلُ بين البشرِ ، وصارت حجارةُ العماراتِ والأرضُ تَقْذِفُ اللهبَ وتفتكُ بكلِّ شيءٍ حيٍّ ، وتطايرت أشلاءُ الرجالِ والنِّساءِ والأولادِ والحيواناتِ ، والدّماءُ

تصبغُ الأرض والتربة ، وصارَ الجريحُ ينادي ويستنجِدُ والمصابُ يصارِعُ الموتَ وهو ينزفُ ، وطائراتُ العَدوِّ تلاحقُ النّاجين والمسعفين ، والموتُ يسودُ في الساحة وطرقات المدينة المنكوبةِ ، أما علىٰ خطوط الجبهة فقد التهبت المواقع علىٰ الجانبين والمدافع والرشاشات تُلقي بِحمَمِها بكل اتجاهٍ ، وقنابِلُ الصهاينةِ تُصيبُ القرىٰ ومن فيها من المدنيين العُزَّلِ وتهدمُ بيوتهم علىٰ رؤوسهم .

كان الرقيب موسىٰ ابن بلدةِ سكوفيا في أحد المرابضِ يَمْتَطي ظهرَ دبابَتِه الروسية الصُّنعِ ويشدُّ أَزْرَه بمدفَعِها العتيد ورشاشِها الثابتِ الرمايات ، ويَنْتَخي برفاق من سدنةِ هذه الدبابة الثابتة السير والحركة وقَذْفِ الأعداء وإفشالِ تقدمهم .

وبقيت هذه الجبهةُ صامدة تقاومُ تقدُّمَ الأعداءِ وتبعثِرُ تجمعاتهم ، ولكن المؤامرةَ علىٰ وطننا كانت كبيرةً واستطاعت القواتُ الصهيونية بما ملكت من طيرانٍ متقدِّمٍ زودتها به القوىٰ الاستعمارية ، وما حصل عليه من خططٍ استخبارية أن تجتاحَ التَّحصينات المصرية وتُسقِطها وتَشُلَّ الطيران المصري وتُحطِّمَ دفاعاتِ الجيش في سيناء ، وهكذا سَقَطَتِ الجبهة الغربية وكان وَقْعُ ذلك قوياً علىٰ باقي الجبهات فاخْتَرقت قواتُ العدو الجبهة السورية بعد أن كَثَّفَتْ طلعاتِها الجوية وهجماتِها المدرعة عليها ، وانسحبت تشكيلاتُ الجيش السوري إِلىٰ مواقع دفاعية جديدة خلفَ مدينة القنيطرةِ .

أعملَ الصهاينةُ الإرهابَ والقتلَ والأسرَ بأهلِ المنطقةِ وهدموا بيوتَهم علىٰ أمتِعَتِهم وسُبلِ عيشِهم ومعاشِهم ، وبدؤوا بترحيلهم عن دورهم وأرضهم تحتَ تهديدِ السلاحِ والقتلِ ، وسارَ الناسُ في الدروبِ الرهيبةِ نحو الأماكنِ الآمنةِ إلىٰ قرىٰ ومدن لم يصلها الاحتلال.

كان المقاتل موسىٰ الرّحال قد أودَع زوجتَه زهرة وطفليه حسن وحسين عند جيرانه ، في القَريةِ الحدودية بعد أن اشتدَّتْ المعركةِ ، وطَمْأَنَهُ الجيرانُ بأن ما قد يحصلُ لهم سوف يحصلُ لزوجته وولديه ، وذهب وهو مطمئنٌ عليهم وكلُّهُ رغبةٌ لملاقاتِ العدوِّ المجرم.

ومع قوافِلِ المواطنين المتجهين شرقاً يعلوهم الحزنُ والألمُ والعويلُ والخوفُ من المجهولِ حيث الانفجارات حَوْلَهم وأمامَهم ووراءَهم ، والأعداءُ يرافقونهم لا يسمحون لأِحَدٍ بالخروجِ عن الطريق وإلاَّ واجَهَ الموتَ.

كانت زهرةُ ، زوجةُ المقاتل موسىٰ تسير مع الجموع تحملُ وَلدَها الرضيعُ ويتعلَّقُ ابنُها الأكبرُ بأهدابِ ثوبِها ، وبعد مسيرةِ ساعاتٍ تَعِبَت فيها وجاعَ وَلدَاها وقد جَفَّ حليبُ ثَدْيَيْها من الخوفِ علىٰ ولديها وزوجها في جبهة القتال.

توجّهت الزوجَةُ نحو امرأةٍ عجوزٍ تعرفها في الرَّكب ورَجَتْها أن تأخذ منها ابنها (حسناً) خوفاً وتحسباً من انتقام الأعداء منها

ومن ولديها إذا عرفوا أنها زوجَةُ مقاتِلٍ علىٰ خطِّ الجبهةِ ، فقد رأتهم يسألون عن عائلات الجنود ، فيأخذونهم من بين الجموع إلىٰ أماكن مجهولة ، ثم أمَّنَتْ ابنها الآخر عند امرأةٍ من جيرانها .

سارَتْ القافلةُ المنكوبة نحو مدينةِ القنيطرةِ ، التي هاجَ فيها الناسُ وماجوا بعد سماعِ الخبرِ والاختراقِ الحاصِلِ في خطِّ الجبهةِ السورية ، وسقوطِ المواقِعِ والتحصينات علىٰ الحدود المصرية ، ومع اقترابِ الرَّكب من وسط المدينةِ ظهرت لهم قاذفةٌ مُعاديةٌ يقودُها صُهيونيٌّ لَئيمٌ يَمتلىءُ حِقداً وعنصريةً بغيضةً ، ووجدَهم صيداً سهلاً فألقىٰ عليهم قُنبلةً متفجِرَة فأَلْهَبت الحجرَ والأرضَ والسماء ، وصارت أشلاؤهم في الساحات وعلىٰ الجدرانِ وفي الطرقاتِ ، وكانت زوجة الرقيب موسىٰ (أم حسن) بين الضحايا وهي تنظر حولها وتصارِعُ الموت ، فتلفظُ أنفاسَها لعلَّها ترىٰ ولديها وهم بين الناجين ، وردَّدَت آخرَ كلماتِها : (أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً رسولُ الله) .

وكانت المجزرةُ رهيبةً والشهداءُ كثيرين والإصابات خطيرةً ، والقاذفةُ الطائرةُ تلاحقُ المسعِفين والجرحىٰ وتطلق عليهم رَشقاتٍ من الرصاص وهم يَحْتَمون بالجدران والأشجار والحفرِ ، وجروحهم تنزف دَماً وثيابهم تشتعِلُ لهباً وقلوبهم تتمزَّقُ أَلماً ، وانتشر الناجون من القصف في كل اتجاه كلٌّ ينجو بنفسه وأولاده وأَهله ، وهكذا ذهب الطفلان مع من نَجَوْا ، فالكبير توجهت به العجوز نحو مخيمٍ للاَّجئين ، والصغير إلىٰ

مخيم الوافدين في دوما ، وهما يطلبان أمَّهما التي أصبحت في عِداد الشهداء وسال دَمُها فوق تربة الجولان الطاهرة ، ونجا الطفلان بأمر رَبِّكَ حين أوحىٰ لها بتأمين الولدين بعيداً عنها وخارجَ نطاق القنابل والرصاص المتطاير من الطائرة.

وبعد أن سيطر الصهاينةُ علىٰ مدينة القنيطرةِ وقُراها وأرضِها الممتدةِ من الحمة جنوباً إلىٰ بانياس شمالاً ، بطولِ حوالي ٧٠ كلم حتىٰ لبنان وبعرضٍ يتراوح بين ٣٠ كلم و٢٥ كلم بالعمق السوري شرقاً ، ومن ثم طردُ السكان وهدم قراها ومدنِها ومنها القنيطرة عاصمة المحافظة.

راحِ والدُ الطفلين يبحث عن ولديه بعد أن علمَ بِخَبَرِ الفاجِعَةِ التي أَدْمَتْ قلبَه ، وحزنَ بشدَّةٍ علىٰ فَقْد واستشهادِ زوجَتِهِ المخلصةِ (زهرة) التي كانت تَفيضُ حناناً ورقةً ، وهي تحنو علىٰ ولديها وزوجها وأهلها وجيرانها.

ولن تذهبَ من مخيِّلتي صورتُها وهي صغيرةٌ ، عندما رأيتُها وهي تبكي بكاءً مُرّاً علىٰ والدي الذي توفّي فجأةً في قريتنا العتيدة الرابضة فوقَ جبالِ الجولان الجنوبية.

ذهب الوالد المفجوعُ يبحثُ عن ولديه ، واتجَهَ نحو درعا يتتبَّعُ الطرق التي سَلَكَها النازحون ، فوجد ابنَهُ حسناً عند عجوزٍ حَنَّتْ عليه وكأنها أُمّه وارتمىٰ الطفلُ في حُضْنِ والده وهو يطلبُ والدته ، وتساقطت العَبَرات من مُقْلتيه وهو يرىٰ ابنيه وقد أَصبحا

يتيمَا الأم ، ثم تابع البحث في أماكن أخرىٰ كي يجدَ ابنه الآخرَ حسيناً ليكون مطمئناً علىٰ ولديه الذين يمثلان له رائحة أُمِّهما وصورَتِها ، وكان ولده الأصْغَر عندَ جيرانهم الذين كانوا في الجبهة وقد رَعَوْهُ كأولادهم ، وهدَّؤوا من رَوْعِهِ وهو يبكي علىٰ أمه الشهيدة (زهرة الرحال).

اجتمع الأب وابناه في بيتِ عمها بدمشق وأخذت زوجتُه ترعاهما وتعتني بهما ، وأُدْخِلا في مدارس أبناءِ الشهداءِ ، هذه المؤسسة التي أنشأها ورعاها الرئيس الخالد حافظ الأسد ، وكانت تقوم علىٰ إدارتها أمٌّ جليلةٌ تَهبُ الحنانَ لجميع الأطفالِ في هذه المؤسسةِ وتعوِّضُهم عن فقْدِ الأمِّ أو الأبِ وحنانهما والجميعُ ينادونها (بالأم الحنونة).

ولما كان الأبُ مُتَلَهِّفاً لملاقاةِ الأعداءِ الذين قتلوا زوجتَهُ الغالية ، وشرَّدوا أهلَه واحتلوا أرضهم ، ولقي الكثيرون منهم حتفهم برصاصِ وقنابل طائراتهم ومدافعهم ، وأسلحتهم التي زوَّدَتها لهم الدول الاستعمارية الحاقدةُ علىٰ أمتنا العربية التي لَقَّنَتهم دُروساً بالدِّفاعِ عن الأرضِ والدين والعِرضِ عَبْرَ العصورِ منذ الفتوحاتِ الإسلامية العربية ، والحملات الصليبية ومعارك الاستقلال في أرجاء الوطن العربي الكبير.

وصلَ المقاتِلُ موسىٰ إلىٰ قطعته العسكرية التي تَشْتَبِكُ يومياً مع الأعداءِ ولا تدَعُ لهم فرصَةً لالتقاط الأنفاس ، وتقومُ

المدفعيةُ السوريةُ والدباباتُ المرابِطَةُ علىٰ خطِّ النار بِدَكِّ مَواقِعِهم وقطعاتهم تجاه خطوط الجبهةِ السورية الجديدة ، بعد نكسةِ حزيران ١٩٦٧م ، وتشنُّ القواتُ السورية **حَرْبَ استِنْزافٍ** مُتَواصِلةٍ وَتَقُضُّ مَضَاجِعَ المُغْتصبين والمعتدين؛ كي لا تدعَ لهم مجالاً للتمركزِ في المناطق المحتلة .

توجه الرقيب موسىٰ إلىٰ مقرِّ قيادةِ الكتيبةِ ، وطلب مواجهةَ القائِدِ الذي كان مشغولاً بإدارة المعركة ، ولمّا علمَ القائِدُ بطلبِ هذا المقاتِلِ المقدام سمحَ له بالمثولِ بين يديه ، وسماع طلبه ، وكان يتوقَّعُ منه أن يسمحَ له بالانتقالِ إلىٰ قطعةٍ قريبةٍ من دمشق ، حيث يُقيمُ ولداه كي يَسْهُلَ عليه الإشراف عليهما ، ولمّا دخل عليه وَحَيّاهُ تحيةً عسكريّةً قويّةً ، وتفاجأَ الضابطُ بما أدلىٰ به هذا المقاتل المقدام! .

قال الرقيب : اسمح لي يا سيدي بالالتحاقِ بقطعتي وفصِيلتي التي تقاتلُ بمواجهةِ العدو! .

ردَّ عليه قائِدُه : لقد نقلتُكَ إلىٰ موقعٍ تستطيعُ فيه الإشراف علىٰ ولديك الذين أَصْبَحا من دون أمّ! .

ردَّ الرقيب موسىٰ : أريدُ أن أُشارك رفاقي في صَدِّ العدوان ، وإن دَبابَتي تنتظرني يا سيدي! . .

وأمام إصرارِه وتحمُّسِه لِمُقارَعَةِ الصهاينة الذين قتلوا أمَّ ولديه وأبناءَ قريتِهِ واحتلوا أرضَهُ وشرَّدوا أَهله ، وافق قائدُه علىٰ طلبه؛

كي لا يكونَ سبباً في حرمانهِ من المشاركةِ في جهادٍ فرضَه الله علىٰ المؤمنين ، توجّه المقاتِلُ نحو قطعتِه فوجَدَ أفرادَ فصيلته في الميدان مُتَوَثّبين للقتالِ ، وقد أُصيبَتْ دَبابتُهم ، فغادروها وتوَضَّعوا في الخنادِق وأَصَابِعُهم علىٰ الزِّنادِ.

سألَ العريفُ سليم الرقيب عن ولديه؟ ، وفرحَ الجميعُ لحضورِهِ! . . . وكان يُقَبِّلُهم واحداً تلو الآخر . . .

ونظرَ إِلىٰ ساحةِ المعركة المشتعلة ، وأَدَواتُها الأسلحةُ الثقيلةُ ومنها المدافعُ والدباباتُ ، وتَحَسَّرَ علىٰ تَعَطُّلِ دبابتِه التي كانت صَيَّادَةً لآلياتِ العدوِّ ومركباتِه وتفحَّصها لَعَلَّهُ يعيدها للعمل ، ولم يجدْ بها حِراكاً ولا حركةً فَوَدَّعها ، ونزلَ عن صَهْوَتِها لقد كَبَتْ كَبْوَتها الأخيرةِ ، واستدار نحو رِفاقِه وطلبَ تفريغها من الذخيرةِ والآلاتِ والأدواتِ التي قد يحتاجونها.

وأمام إِرادةِ المجموعةِ المشاركة في فعاليات المعارك الدائرةِ يومياً ، وهم يطالبون بدبابةٍ بديلةٍ عن دبابتهم التي أُعْطبتْ ، حيث غادَرَ الرقيب إِلىٰ مقرِّ الكتيبة وهو يَعِدُ رفاقَهُ بأنه لن يعودَ إِلا ومعه مدرَّعةٌ جديدةٌ يمتطونَها ويُصْلونَ الصَّهاينةَ لَهَباً من قنابلها. طلب الرقيبُ مقابلة القائِدِ ، ولما حضرَ بين يديه ، حَيّاهُ تحيَّةً عسكرية قويَّةً ، وقَدَّمَ له طلبَهُ؟

قال له الضابط: أيها الرقيب ، لقد قَدَّمتَ ما تستطيعُ من أعمالٍ قتاليةٍ وأَبْلَيْت في المعركة ، حتىٰ فَنَتْ آلتُكَ وَتَعَطَّلت ،

وآن لك أن ترتاحَ وتَتَفَرَّغَ لولديكَ بعد فقدِكَ لأمِّهما! . . .

قال المقاتِلُ أبو حسن: ولكن يا سيدي ، إذا فَنِيَتْ آلتي ، فإن عزيمتي لم تَفْنَ. . . وأصحابي يَتَشَوَّقونَ لرؤيتي وأنا أُحضِرُ لهم مركبةً جديدةً من هذه المدرعات التي جاءت إليكم ، وآن لها أن تدخُلَ المعركةَ. . . !

لم يجدِ القائِدُ بداً من تلبيةِ طَلَبِهِ ، وأعطاهُ أمراً بتسلُّمِ واحدةٍ من المجموعةِ التي زُوِّدتْ بها الكتيبةُ ، واعتلىٰ الرقيب ظَهْرَ الدَّبّابَةِ الجديدةِ وسارَ مزهواً بما حصلَ عليهِ ، وتذكَّرَ رفاقَهُ الذين سيفرحون بما جَلَبَ لهم ، وراحت آلته العتيدة تَهْدُرُ بين الوِديان والأشجارِ ترفعُ العلم العربي السوري فوق مَدْفعها الشّامِخ إلىٰ العُلا ، وهو يلوذُ بها عن مَرأىٰ المعتدين وقد غَطاها بأغصان الأشجارِ ، ودَهَنَ أطرافها بطينٍ أسمر كأنها من سباعِ وادي الرقاد أو طُعيم أو اليرموك أو من ضباء سهول الجولان وحوران وغور الأردن.

ـ وصلت المركبةُ الأمل إلىٰ القطعةِ وتَلَقَّاها أَفرادُ الفصيل بالترحاب والشكر لله علىٰ قدوم الرقيب بهذه الهدية الغالية ، وأحاطوا بها يتفحصونها ويتعرفون علىٰ ميّزاتِها التي تعلموا عنها سابقاً ، وهكذا وَضَعوها في مكان آمن غير مكشوفٍ للعدو؛ ترىٰ ما حولها ولا تُرىٰ ، تشرف علىٰ ميدان المعركة فتتقدَّمُ عند اللزومِ وتصوِّبُ مدفَعَها وتطلقُ قذائِفها ثم تختفي في مَخْبَئِها. وعند طلوعِ فجرِ اليوم التالي نادىٰ الرقيبُ علىٰ رِفاقِهِ: ألا هيا

يا رِجال نحن سنبدأُ المعركة ، لقد حان وقتُ النزالِ وسلاحُنا صائبٌ إن شاء الله ، ومدفعُنا ثاقِبٌ لدروعِ العدوِّ ، وآلَتُنا مُتَلَهِفَةٌ للقتالِ! . . .

امتطىٰ الجميعُ الدَّبَّابَة وجلسَ كلٌّ في حجرته وعلىٰ كرسيّه وتحرَّكَ بها القائد ليطِلَّ علىٰ أرضِ المعركةِ ، ونظر من منظارِهِ الحديث المتطوِّرِ ، فرأىٰ هدفاً أمامه وقد أشرقت عليه الشمس ، وكان يَلمعُ ويظهرُ جلياً فَوَضَعَهُ في مرمىٰ دريئَتِهِ وطلب من الجميع الاستعداد لصيدٍ ثمينٍ عندما يتلقون الأَوامِرَ! . . .

قال العريف: إلىٰ متىٰ ننتظِرُ؟ . . .

أجاب الرقيب: نحن عسكريون ولنا قيادة ، ولا يجوز أن نتصرَّفَ لوحدنا ، إلا عندما نأخذُ الأوامرَ . . .

قال المذَخِّرُ: هذه القذيفَةُ ، سوف أودِعُها قلْبَ المدفعِ ، وقد أَمَّنتُها أن تُفَجِّرَ تلكَ المركبَةِ ومن فيها ، وإني مُتَأَكِّدٌ من ذلك كما وَعَدَتْني بألا تَخْذُلَنا أبداً.

وما هي إلا دقائقَ حتىٰ اشتعَلَتِ المعركةُ ، وحانت الفرصَةُ وقبلَ أن تتحرَّكَ آلاتُ تلك الدَّبابة المعاديةِ المقصودة ، أعطىٰ أبو حسن أوامِرَه بِقَصْفِها ، وبدَتْ والنيرانُ تَشْتَعِلُ فيها ، وسدنَتُها يتساقطون منها وقنابلها تنفجرُ في وسطها ، صاح الجميعُ وكَبَّرَوا وقَبَّلوا بعضهم فرحين بما أَنْجَزوا في ميدان المعركةِ ، وهذه

الطلقاتُ الأولىٰ لهذه الصيادة التي يجب عليهم المحافظةُ عليها وصيانتُها! . . .

كانت المجموعةُ فرحةً بانتصارِها بتدميرِ آلةٍ من آلاتِ العدوانِ وقتلِ مُحتلين اعتدوا علىٰ أرضنا ومغتصبين لحقوقنا ، ونشيدُهم يتردَّدُ وسط الانفجاراتِ ولَعْلَعاتِ الرّصاصِ :

لا زلتَ يا وَطني عزيزاً أَكْثرَ
ما ما دام فينا العِرْقُ يَنْبُضُ بالدِّما
فنصيرُ حُرّاساً إليك وللحِمىٰ
لن يدخلَ الأعداءُ أرْضَك طالما
فينا جُنودٌ صامدون لتسلما
يا مَوْطِنَ الأحرار أرضاً وسَما

وتدور المعاركُ كلَّ يومٍ وأبو الطفلين في قلبهايتنقّلُ بدبابته من موقعٍ إلىٰ آخر يصوّبُ ويطلقُ الرّمايات فتصيبُ الهدفَ ، ورفاقُه من حوله يتناوبون علىٰ تخديم آلتهم الجبارة وما فيها من أسلحةٍ متطورةٍ ، وكانت القنابل تنطلق من سبطانتها لِتُصِيبَ قَلبَ العدوّ فتحرق وتُدمِرّ وهو يُرَدِّدُ: يا روحَ زهرة ، يا أرض الجولان يا أرواحِ شهداء سكوفيا وفلسطين والعرب ، من أَجلكم أُصْلِي هذا العدو قنابل وأنا واحدٌ من آلاف الجنودِ العرب السوريين وقادتهم الرابضين علىٰ أسلحتهم ، ولن يهدأ لنا بال أو نرتاح إلاّ يوم تحرير الأرض العربية في الجولان ، والقدس وطردِ العدو

اللئيم من كل شبرٍ من الوطن العربي العزيز.

هدأَ القِتالُ لبعضِ الوقتِ ، وقد اشتاقَ المقاتِلُ لوَلديهِ!... وحصلَ علىٰ إجازةٍ يومية ، سافرَ إلىٰ حيث هما في دمشق ، وكان لقاؤُه بهما مُؤَثِراً!... عندما سألاه عن أُمِّهما ، وبكَيَا طلباً لرؤيتها!... فقال لهما: سوف أَذهبُ لِلِقائِها وأُطَمْئِنُها عنكما!... وراح يداعبُهما ويُرَوّحُ عن نفسه ونفسيهما!... وجاءَ الأهلُ والأصحابُ ورِجالات المخيمِ يَلقونَه ويسلمون عليه ويهنّئون بسلامَتِه ، وهم يتساءلون عن أَمرٍ أَقَرَّتْهُ الأمم المتحدة ومجلس الأمن بعودتهم إلىٰ ديارهم وقُراهم التي طُرِدوا منها بقوَّةِ السِّلاحِ والتهديد بالقتلِ وهتك الأعراضِ.

قال أبو حسن: هذا العدوُّ لا يَعْتَرِفُ لا بالقوانين الدولية ولا بالمعايير الإنسانية ، وما يَرْدَعُه عن غَيِّهِ إلاَّ السلاح والقوة والعزيمة ، ولن يُعيدَ أرضاً أو حقاً لأصحابِهِ إلاَّ عندما يشعرُ بالهزيمةِ والضعفِ ، ونحن له بالمرصاد!...

إن رفاقنا الأشاوسُ علىٰ خط النار تَمْلَؤهم الحماسة لِلِقائِه وفي كلِّ يومٍ يذيقونَه الويلات ويوقعون به أَفْدَحَ الخسائِر ، ولولا دَعْمُ الدّولِ الغربيَّةِ والولاياتِ المتحدةِ الأَمريكية له بالسلاح والمال ، وتزويده بالطائراتِ المتطوّرةِ من فرنسا وإنكلترا وأمريكا التي تعتبرُ هذا الكيان الدخيل علىٰ منطقتنا وِلاَيَةً تتبعُ له ، وعليه حمايتها ، إنها الحربُ العنصرية ضدَّ العرب والإسلام ، ويريدون الانتقامَ من شعبنا الذي أذاقَهم الذُّلَ والهوانَ علىٰ مَرِّ

العصور أثناء المعارك التي دارت في اليرموك وعين جالوت وحطين والقدس ، وسوفَ يَلْقون نفس المصيرَ علىٰ يدِ الشبابِ العربي المتوثِّبِ لِلِقائِهم.

عادَ المقاتِلُ إِلىٰ خطِّ الجبهةِ ، وتَلَقّاهُ رفاقُه بالترحاب والفرحِ وشدوا أَزْرهم بِهِ ، وتفقَّد سِلاحَهُ وآلتَه الغالية التي أصبحتْ وكأنَّها في غلاوَةِ ابنيهِ ولها عنده محبَّةَ الرجل لسلاحه وتذكَّرَ قولَ شاعر القرية:

يـا وَلَـدْ يـا ابـنَ المسْعـودَه بيـع أهلِـك واشـري بـاروده
والبـارودة أَخيـر مـن أهلـك يـوم الحـرب بتفـرج همـك

دفَعَ الأعداءُ بتشكيلاتٍ حديثةٍ من الدباباتِ التي وصلتهم علىٰ جناح السرعةِ من دولٍ تدعمهم بكلِّ أنواع الأسلحة المتقدمة من الولايات المتحدة ، والغرب الاستعماري ، الذي يكره العرب ويَحْبُكُ المؤامرات ويدسُّ الدَّسائِسَ ويؤيِّدُ إسرائيلَ باعتداءاتها علينا أُعْطِيَتْ الأوامِر للمقاتلين المتمركزين في الخطوطِ الأولىٰ للجبهةِ ، والمدفعيةِ الثقيلة والهاون ومجاميع الكاتيوشا وغيرها من الأسلحةِ المختلفةِ؛ للتصدي لهذا الهجوم الكبير والهمجي للمجرمين ، وتسابق رفاق أبو حسن لِركوب مدرعتهم العتيدةِ لأخذ دورهم في صَدِّ العدوان ، وكانوا ينشدون ويقسمون باسم الوطن بألاَّ يتراجعوا ، أو يتقاعسوا في المعركة الحامية مع عَدوٍّ لئيمٍ لا يرحم.

وقد تكاثرت عليهم الرّمايات والانفجارات والصّواريخ

وآلَتُهم تصعَدُ تَلّةً وتنزلُ حُفرَةً وتقذِفُ قنابلها علىٰ مركباتِهم وتجمّعاتِهم وتُفَجِّرُها وتلهبُ داخلها وخارجها ، وهي تَظْهَرُ وتَخْتَفي وكَأَنها ثُعبانٌ يلسَعُ ويَخْتَبِىءُ وَيَتْرُكُ فَرِيسَتَهُ تَتَخَبَّطُ في ساحةِ المعركةِ.

شاهد رفاقُ السِّلاحِ إخوةً لهم في دبابةٍ متقدِّمَةٌ مُحاصَرَةٍ من أَفرادِ العَدُو ودباباتِه ، وقد أُصيبت وتعطّلَت عن الحركةِ ، وجاءتهم الأوامرُ بإنقاذهم وَفَكِّ الحِصارِ عنهم ، وكانت دبابةُ أبو حسن تتقَدَّمُ نحوهم وتغطي انسحابهم بنيرانها الكثيفة وقنابلها الدّخانيةِ ، حتىٰ استطاعت إكمالَ المهمّةِ بنجاحٍ ، وَسَلِمَ رِفَاقُهم والتحقوا بالقطعات القتالية الأخرىٰ ، ومع احْتِدامِ المعركةِ وتلاحمِ القُوات مع بعضها وتفوقِ المقاتلين العرب السوريين ، والسيطرةِ شبه الكاملة علىٰ ساحة القتال ، دفع العدوُّ بطيرانه للتدخُّلِ بالمعركة؛ لإنقاذِ وضعِ خطوطِ تشكيلاتِه المتفكّكَةِ والمهزومَةِ. واشتبكت دبابَةُ مَجْموعَةِ الرقيب موسىٰ مع طائرةٍ سمتيّةٍ صهيونيّةٍ ، وكان العريف سالم يُصَوِّبُ عليها مَدْفَعَهُ الرشاش ويُصْليها بِقَذائِفِهِ المتفجرةِ، والطيّارُ الخبيثُ يلوذُ عنها وينحدِرُ إلىٰ الوادي ، ثم يَظهر مُطْلِقاً صَوَاريخه نحو الدبابات السورية ، ومنها آلةُ أبو حسن ، ومع اختراقِ الرَّصاصات جسم الطائرة واشتعال النيران فيها ، وقد هَوَتْ في مُنْزَلَقٍ خطيرٍ في وادي طُعيمٍ العميق وتمزَّق أجسادُ رُكابها الأوغاد كما تمزقت في هذا الوادي أجسادُ فرسانِ الرومان في معركة

اليرموك الحاسمة ، أثناء الفتوحات الإسلامية لهذه البلاد.

صوَّبَ العدوُّ صواريخه نحو المدرعةِ التي أَسْقَطَت الطائرة ، وحرقت العديدَ من آلياتِهم ، وقد رَصَدوا مكانها بِدِقَّةٍ وتكاثروا عليها بالقذائِفِ فأصابتها متفجِرَةٌ خارِقَةٌ واشتعلتْ فيها النيرانُ ، وسدنَتُها يحاولون إنقاذَها وإخمادَ اللهب الذي بدأ ينتشرُ إلىٰ وسطها ، ولمّا لم يجدْ قائِدَها بُداً من إخْلائِها وتَرْكِها أمرَ رِفاقَهُ بالتَّخَلّي عنها وَمُغَادَرَتِها قبلَ أَن تنفجِرَ ، وراحوا يتركونها الواحد تلو الآخر ، وبقيَ الرقيبُ يصارعُ النيرانَ لَعَلَّهُ يُنْقِذُها ، وهو ينادي: لبَّيك يا أم حسن ها أنا ذا قادِمٌ لأَراكِ في جَناتِ الخُلدِ عند مقتدِرٍ جَعَلَ الشهداءَ عندَ مراتِبِ الأَنبياءِ والصالحين.

وانفجرت الدبابَةُ وفيها الرقيب موسىٰ ، وتمزَّقَ جَسدُه الطاهر والنيرانُ تلتهِمُ الآليةَ التي أَذاقتِ الأعداءَ الهوانَ ، وفيها أَشلاءُ الشهيدِ الحيِّ الذي طلب اللِّحاقَ بِركبِ الخالدين ، وَصَعَدتْ روحه إلىٰ باريها لتلقىٰ هناك روحَ زوجته الغالية وأرواحَ من سبقوه من قوافِلِ الشهداءِ الأبرارِ.

تَجَمَّعَ القادَةُ والرّفاق وحملوا جثمانَه الغالي على عربةِ إسعافٍ، وساروا بها حيث تَجَمُّعُ النازحين في شرق مدينةِ دمشق، وهناك أُقيمت له مجالسُ العزاء ، ومنهم من يهَنِّؤُهُم بالشهادةِ؛ لأنه الشهيد الحي الذي قال عنه ربنا عز وجل: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

هذا هو شهر تموز ١٩٧٠م ، وقد سبقه حزيران ١٩٦٧م ، وبينهما ثلاثةُ أعوامٍ من عمر الزمن ، ولكنها مليئةٌ بالأحداثِ والبطولاتِ للرقيبِ الشهيد الحي موسىٰ ورفاقِه الأشاوس ، وما غابت عن مخيّلَتِه صورةُ زوجته الشهيدة ولا ذِكرُها ، وكانت تُزَغرِدُ له مع كلّ طلقَةٍ يقذفُ بها الأعداءَ وهو يُرَدِّدُ: يا روح زهرة يا أرواحَ شهداء أُمتي لن تذهبوا هدراً ، وها نحن نأخذ بثأركم من عدوٍّ صهيونيٍّ متَغَطْرِسٍ.

حضرت وفود عسكريَّةٌ ورسميَّةٌ وشعبيَّةٌ إلىٰ مجالس العزاء التي أُقيمت له في مخيم الوافدين ، وكانوا يذكرون بطولاتِه هو ورفاقه المقاتلين علىٰ خط الجبهة ، وكيف خاضوا المعارك ببسالةٍ واقتدارٍ رغم سيطرةِ طائراتِ الأعداء وقصفها مواقعهم وقد اسقطوا العديد منها.

راحَ العم يضم إلىٰ صدره ولدي الشهيد الصغيرين ، فهو يشمُّ فيهما رائحة أبويهما الغاليين علىٰ قلبه.

كان الطفلان ينظران إلىٰ قبر والدهما وقد عرفا أنهما أصبحا من دون أب وأم ، واغْرَوْرَقتِ الدموعُ في عينيهما والعم يمسحُ لهما هذه الدموع.

وكان القدَرُ قد حكم علىٰ الرقيب موسىٰ أن يُدفَنَ في أرضٍ غير أرض قريتِهِ التي طالما حلمَ بالعيش فيها وأن تضمَّ رُفاته عند مَمَاته.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

ولكن نفسه قد كسبت رضاء رَبِّها بالشهادةِ وهي عنده من أعلىٰ المراتب.

* * *

obeikandl.com